المحاضرة العاشرة

السرد الصوفي

"الأحوال مواهب والمقامات مكاسب، والأحوال

تأتي من غير الجود، والمقامات ببذل المجهود"

الجرجاني/التعريفات

أولا. دلالة المصطلح (التصوف):

اختلف أهل الاختصاص في أصل كلمة (التصوف)، فمنهم من قال إن التصوف مشتق من الصوف، وهو لباس أبيض خشن في لبسه اخشوشان وتواضع، وقد استحسن السهروردي هذا الاشتقاق فقال: "والقول بأنهم سموا صوفية للبسهم الصوف أليق وأقرب إلى التواضع، وما آثروه من الذبول والتواضع والانكسار والتخفي والتواري كانوا كالخرقة الملقاة، والصوفة المرمية التي لا يرغب فيها ولا يلتفت إليها"[1].

وذهب فريق آخر إلى أن أصل الكلمة يوناني مشتق من كلمة (صوفيا) اليونانية ومعناها (الحكمة)، فكلمة "Sophas" اليونانية تعني الحكيم[2] ، ومن قال بهذا الرأي أبو الريحان البيروني، وقيل إن أول من استعمل كلمة التصوف من كتاب العرب الجاحظ في البيان والتبيين (الصوفية من النساك).

ومهما يكن فالتصوف مذهب فكري وسلوكي محدود المعالم والأهداف يعتمد مبدأ المجاهدة (ترويض النفس) والانقطاع عن الدنيا، وتختلف دلالاته باختلاف طوائفه وفرقه، فقد ذكر له أزيد من نيف وسبعين تعريفا. فمن المتصوفة من هام بحب الله، ومنهم من يدعي الاتصال المباشر بالله، ومنهم القائل بالاتحاد مع الله، وآخر قال بحلول الله فيه... [3].

---

[1] محمد فهد شقفة، التصوف بين الحق والخلق، الدار السلفية للتوزيع والنشر، تونس، ط3، 1983، ص12.

[2] هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص282.

[3] ينظر، محمد جواد مغنية، معالم الفلسفة الإسلامية (نظرات في التصوف والكرمات)، ص183.

والتصوف الإسلامي جذوره تمتد إلى الأديان والفلسفات الأجنبية، ففكرة وحدة الوجود والحلول مثلاً، قد جاءت من الفلسفة الهندية والأفلاطونية، كما أن البوذية ترتكز تعاليمها على تهذيب النفس وتحريم الملذات، كما تعد الرهبانية المسيحية أحد منابع التصوف[1] الإسلامي مع اختلاف بينهما.

ويبقى المصدر الأول للفكر الصوفي في الإسلام هو القرآن الكريم والحديث الشرف، مع رؤية خاصة وتأويل مخصوص للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، بل تحميل هذه النصوص أكثر مما تحتمل أحيانا، كما فعل ابن عربي في كتابه (فصوص الحكم)، فالنص عنده له منطوق (المعنى الظاهر) ومفهوم (المعنى الباطن). كما جاء في (النص السابع عشر) وهو يشرح "وهو السميع البصير": "السميع البصير اسمان من أسماء الله... فالله عندما وصف نفسه بأنه السميع والبصير لم يرد مجرد حمل صفتي السمع والبصر على نفسه، بل أراد فوق ذلك أن يقرر أنه وحده هو الذي يسمع في كل ما يسمع ومن يسمع والذي يبصر في كل من يبصر ومن يبصر... فهو في كل ما يسمع وما يبصر، وبهذا يصدق على الحق أنه ليس كمثله شيء، لأنه لا يشبه أي شيء من المخلوقات وإن كان عين المخلوقات جميعها"[2].

فالتصوف مذهب عملي علمي، عملي: لأن الصوفي متعبد مجاهد لنفسه يصوم النهار ويقيم الليل، وعلمي وعلمهم مما لا يعلمه غيرهم وهو علم الباطن. يحكى عن السري أنه قال: "التصوف اسم لثلاثة معان وهو الذي لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله"[3].

ويقول صاحب الرسالة القشيرية وهو من أهل الاعتدال: "التصوف اسم وقع على كل من اجتمع قلبه وقت ذكره، وتفرق في أحوال أسباب فكره وتزايدت أشواقه عند السماع وخفيت حقائقه عند الاجتماع"[4].

---

[1] المرجع السابق، ص84.

[2] ابن عربي (محي الدين)، فصوص الحكم، تعليق أبو العلاء عافيفيب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1980، ج2، ص310.

[3] الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الكتب العلمية، المجلد 06، ص351.

[4] زكرياء الأنصاري، الرسالة القشيرية، المجلد الثاني، ج4، ص62.

والفرق الصوفية هي مؤسسات دينية لها قوانينها الصارمة، فالعضو المنتسب لها هو (المريد) بعد أن يقبله الشيخ، ويأذن له في لبس الخرقة، عندها يبدأ حياة المجاهدة وهو في رحلته الروحية يسلك مقامات وتعترضه أحوال. والحال عند أهل الحق معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب، فإذا أدام صار ملكا يسمى مقاما، فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب، والأحوال تأتي من غير الجود، والمقامات تحصل ببدل المجهود"[1] (الأحوال هي: المراقبة، القرب، الحب، الخوف، الرجاء، الشوق، الأنس، الطمأنينة، المشاهدة، اليقين. والمقامات هي: التوبة، الورع، الزهد، الفقر، الصبر، التوكل، الرضا).

ثانيا. التصوف والفن:

إن المتصوف يتدرج في الأحوال ويرتقي في المقامات حتى يصل إلى حال اليقين، و"اليقين نور يقذف في القلب به يدرك العبد الموفق أن ما سوى الحق سبحانه من قبيل الظل"[2]، واليقين أسمى المراتب وأعلى الأحوال لا يصلها المريد إلا إذا جرب حال الفناء، و"الفناء سقوط الأوصاف المذمومة، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة، والفناء فناءان، أحدهما ما ذكرنا وهو بكثرة الرياضة والثاني عدم الإحساس بعالم الملك والملكوت وهو بالاستغراق في عظمة البارئ ومشاهدة الحق"[3]. والفناء حالة نفسية لا تدوم أكثر من ساعتين، تشبه حال (الإلهام) عند الشعراء، أو ما يعرف بشيطان الشعر، يقول الراغب الأصفهاني في محاضرات الأدباء: ادعى كثير من فحول الشعراء أن له رئيسا يقول الشعر بِفِيه وله اسم معروف، ومن ذلك مسحل شيطان الأعشى والسعلاه صاحبة النابغة... [4] فالشعر إلهام مستمد من عوالم خارجية.

وإن اهتمام المتصوفة بالذوق والميل إلى المعاني الباطنية جعلهم يميلون إلى الإبداع الفني (الشعر/القصة) للتعبير عن أحوالهم ووصف مقاماتهم ولهم في ذلك أسلوب خاص يمتاز

---

[1] الجرجاني علي بن علي الحسيني، التعريفات، حققه نصر الدين تونسي، شركة ابن باديس للكتاب، الجزائر، ص138-139.

[2] الأنصاري، الرسالة القشيرية، المجلد الثاني، ج2، ص73.

[3] الجرجاني، التعريفات، ص272.

[4] ينظر، عيسى علي العاكوب، التفكير النقدي عند العرب، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1997، ص30.

بالغموض والميل إلى استخدام الرمز اللغوي تحديدًا، ولهم في هذا الاستخدام مبررات نذكر منها:

1- توافق الرمز اللغوي مع معاني الفناء والبقاء والخوف والرجاء والخلوة والعزلة والغيبة والحضور، فاللّغة الصريحة لا تقوى على توصيف هذه الأحوال، فأبو زيد البسطامي يرمز بالطيران لرحلته الصوفية، وابن الفارض يرمز بالخمر للحب الإلهي...

2- الخوف من سيف القضاء وعلماء الشريعة الذين كانوا يشتغلون على أفكار ومذاهب المتصوفة بالجرح والنقد، لذلك تجنب المتصوفة التصريح ومالوا إلى الرمز والتلميح.

ومن المعاني الصوفية التي كثر التعبير عنها إبداعا وشعرًا، معنى "الحب الإلهي" عند رابعة العدوية (ت185ه)، ورياح بن عمرو القيسي (ت188ه)، وابن الفارض (ت632ه) وغيرهم.

وأول من تغنى بالحب الإلهي رابعة العدوية، ودافعت عن فناء المحب في المحبوب، تقول مخاطبة الذات الإلهية:[1]

احبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى فكشفك لي الحجب حتى أراكا
وأما الذي أنت أهل له فلست أرى الكون حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ولم يقف ابن الفارض (ت632ه) عند حد التغني بأناشيد الحب الإلهي التي يفيض بها ديوانه، بل وصف كذلك لازما من لوازم ذلك الحب هو النشوة بالخمر الإلهية التي سكرت بها أرواح العاشقين[2]، ويعرف عند المتصوفة بـ"سلطان العاشقين" ومما جاء في ديوانه:[3]

قال لي حُسن كل شيء تجلّى بي تَحَلَّى فقلت قصدي وراكا
لي حبيبٌ أراك فيـه مُعنى غر غيري وفيه معنى أراكا

[1] محمد فهد شفقة، التصوف بين الحق والخلق، ص58.

[2] المرجع السابق، ص59.

[3] حسين البوريني وعبد الغني النابلسي، شرح ديوان ابن الفارض، دار التراث، بيروت، ج1، ص233.

إن تولّى على النفوس تولَّى أو تجلَّى يستعبدُ النُساكا
فيه عُوضتُ من هداي ضلالاً ورشادي غيًّا وستري انتهاكا
وَحدَ القلب حُبَّهُ بالتفاني لك شرك ولا آرى إلا شراكا

ومن شعراء الصوفية ابن عربي (ت638ه) في "ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق"، فيه يتجلى لنا أن "الحب مغامرة تنتهي بالشهادة، حب متبادل بين الإنسان والله"[1] وكما في ديوان عفيف الدين التلمساني (ت688ه) ويدور حول موضوعين المحبة والوحدة، وفيه يظهر الحب الإلهي والحب الإنساني والجمال الجسدي والجمال الروحي... وتظهر المقامات والأحوال مثل الصبر على الهجر والفرح باللقاء[2].

وتتعدد مصطلحات الأدب الصوفي، من هذه الأنواع: الشطحات والمواقف والمخاطبات، والإشارات والنصوص والفتوحات.

والنثر الرمزي هو "أقرب إلى المواجيد والانفعالات والعواطف الروحية"[3] كما هو معروف -مثلاً- في أعمال النفري (ت354ه) وشطحات الحلاج (ت309ه)، والإشارات الإلهية للتوحيدي (ت403ه) ومقامات الصوفية للسهروردي (ت587ه) والفتوحات المكية لابن عربي (ت638ه).

وكما عبّر الصوفية عن أحوالهم ومقاماتهم شعرًا عبروا عنها كذلك نثرًا (القصة) تحديدًا، فالسير إلى الله وما يلاقيه الصوفي في طريقه من أهوال ومخاطر عبر عنها تعبيرًا رمزيا، كما في رسالة الطير للغزالي (ت505ه)، والغربة الغريبة للسهروردي (ت587ه) ومنطق الطير لفريد الدين العطار (ت627ه)، وبرقة البلبل للرواسي (ت1287ه)، وصوت الهزار وزيق الفداء لأبي الهدى الصيادي (ت1328ه)[4]. وتبقى قصة منطق الطير للعطار الأغنى صياغة والأكبر كما والأعمق دلالة، ونخصها بالتفصيل في المبحث الموالي.

---

[1] حسن حنفي، من الفناء إلى النقاء (محاولة لإعادة بناء علوم التصوف)، الوعي الموضوعي، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2009، ج1، ص323.

[2] المرجع نفسه، ص331.

[3] المرجع نفسه، ص109.

[4] للتوسع يرجع، المرجع السابق، من ص309 إلى ص319.

ثالثا. منطق الطير لفريد الدين العطار:

فريد الدين العطار[1] من أكبر مشايخ التصوف في التاريخ الإسلامي يعد ثالث ثلاثة في عالم التصوف الفارسي، هم: جلال الدين الرومي، العطار، وسنائي الغزنوي.

والعطار هو أبو حامد محمد بن أبي بكر إبراهيم بن إسحاق، من شعراء الفرس في القرن السادس الهجري، اختلف في سنة ولادته والراجح أنها كانت بين 537هـ و540هـ كان فريد يعمل بدكان العطارة، وهي مهنة تشبه الصيدلة في زماننا، لكنه بعد فترة هجر العطارة وتفرغ للسلوك والعرفان، وسلك سبيل التصوف، طاف بكثير من مدائن الدولة الإسلامية ثم عاد واستقر في نيسبور وظل بها حتى مات مقتولاً سنة 627هـ، قتله واحد من رجال المغول.

تنسب إلى العطار منظومات كثيرة، كانت في حدود اثنتي عشرة منظومة، تبلغ نحو خمسة وأربعين ألف بيت، أغلبها في التصوف، من هذه المنظومات نذكر (إلهي ناميه) منظومة قصصية صوفية، ومنظومة (مصيبت نامه) تزيد على سبعة آلاف بيت، تصور رحلة روحية يقوم بها أحد المريدين مستعينا بشيخه المرشد، وتبقى الأشهر في منظوماته الصوفية (منطق الطير) "لقد حملت هذه الملحمة الصوفية شهرة العطار شرقا وغربا وضمنت له الخلود"[2].

منطق الطير:

هي مدونة سردية صوفية رائدة في العمل القصصي الصوفي، وهي عمل رمزي يصور عروج النفس البشرية إلى خالقها، وقد شاع في الآداب الإسلامية القديمة (العربية والفارسية) القصص والملاحم التي اتخذت من معراج الرسول صلى الله عليه وسلم رمزًا ومنطلقا لتجسيد أفكارها الفسلفية والصوفية تحديدًا.

من هذه السرود المعراجية، نذكر:

---

[1] للتوسع في حياته يرجى العودة إلى هذه الكتب:

– بديع محمد جمعة، دراسات في الأدب المقارن، دار النهضة العربية، 1980، ص115.

– أمين عبد المجيد بدوي، القصة في الأدب الفارسي، دار النهضة العربية، 1981، ص406 إلى 408.

– محمد عبد السلام كفافي، في الأدب المقارن دراسات في نظرية الأدب والشعر القصصي، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1972، ص436 إلى 441.

[2] المرجع السابق، ص442.

معراج أبي زيد البسطامي، ورسالة الطير لابن سينا، وسير العباد إلى الميعاد لسنائي الغزنوي (ت545هـ)، ورسالة الطير لأبي حامد الغزالي (ت505هـ).

وقد استعار "العطار" من القرآن الكريم اسما لقصته الرمزية منطق الطير من سورة النمل في قوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ**) الآية 16، كما جعل للشيخ المرشد اسما قرآنيا هو (الهدهد) (**وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ**) النمل الآية 20. فالهدهد أو الشيخ المرشد في منظومة العطار يقود المريدين في رحلة روحية إلى الله، فتصور سلوك الأرواح إلى خالقها وما يقف في طريق هذا السلوك من عقبات، وما يجب أن يتزود به السالك من قوة وعزيمة لعلّه يتغلب على عقبات الطريق، ويصل سالما في نهاية الأمر. إنها رحلة سلوك ومجاهدات، تؤدي إلى التحقق بأحوال والوصول إلى مقامات لا يبلغها إلى أولو العزم... فهي قصة تدور حول فكرة الفناء، فناء الذات الإنسانية في ذات الله[1].

إن قصة "منطق الطير" للعطار ترمز للنفوس البشرية بالطيور وما يواجه كل نفس منها من عقبات، تعبر عنها، فيفند الهدهد (وهو المرشد) ما يعوق هذه النفوس من أهواء ومخاوف، فالبلبل متعلق بالفناء وبصحبة الوردة، والببغاء فخورة بجمال ريشها، والبط ألف الماء ولا طاقة له بالعيش على أرض يبسة، والبازي سعيد بمكانه فوق ذراع الملك... فهذه الطيور رموز لأعذار الناس وركونهم إلى المألوف... ثم يقودهم الهدهد في رحلة رهيبة يقطعون سبعة أودية، هي رموز لمجاهدات الصوفية (الأحوال والمقامات)، بدأت هذه الرحلة ألوف من الطير لكن كثرتها هلكت في الطريق، ولم يصل في النهاية سوى ثلاثين طائرًا[2].

وتبقى قصة منطق الطير من أجل الأعمال الرمزية في التصوف، فقد قال المستشرق الإنجليزي "براون": "إن منطق الطير من أهم مثنويات(*) العطار وأوسعها شهرة"[3]، وقال

---

[1] ينظر، محمد عبد السلام كفافي، في الأدب المقارن، ص443-444.

[2] ينظر، المرجع السابق، ص449-450.

(*) المثنويات: نظم شعري لا يشترط فيه وحدة القافية إلا بين شطري كل بيت، دون التزام قافية واحدة بين جميع أبيات المنظومة.

[3] بديع محمد جمعة، دراسات في الأدب المقارن، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1980، ص156.

المستشرق الروسي "بارتلس": "من أحسن ما فاضت به قريحة العطار المعروفة باسم منطق الطير"[1].

رابعا. جماليات السرد الصوفي:

الحكي الصوفي هو سرد موصوف بمذهب فكري مخصوص، فالمعاني والقيم الصوفية تعرض في قالب قصصي قصد الإقناع والإمتاع، كما لهذا الحكي معجم لغوي لا يدركه إلاّ المتصوفة وأهل الاختصاص، وعادة ما يهدف السرد الصوفي إلى جلب قلوب المريدين وتثبيتهم على الطريقة، ومن ثمَّ فالحكي الصوفي "حكي خاص يخرج من الإخبارية الجامدة ويحلق في عالم المعنى العرفاني"[2].

ومن التجارب المميزة في أدبنا الصوفي إبداعات عبد القادر الجيلاني، فالسرد القصصي "آلية من آليات تشكيل التجارب ونقل الخبرات والمعارف عند الجيلاني"، وهو ما برز في نصوصه الصوفية الرمزية منها نصه الموسوم (الحلاج) وله عنوان آخر من وضع المحقق (عثر الحلاج ولم يكن في زمانه من يأخذ بيده) وهو النص الذي درسه محمد زايد دراسة سردية وفق نتائج التحليل البنيوي للنصوص السردية، ومما درس في هذا النص بنية الحكاية والخطاب، مظاهر الحكي، السياق النصي، والشخصيات والعلاقات القائمة بينها (الرغبة/التواصل/الصراع) وعناصر التبئير، والفضاء بأنواعه (الزماني، المكاني، النصي...).

وفي خاتمة هذه المحاضرة أثرنا أن نضع بين يدي طلبتنا نصا مقتبسا من منطق الطير للعطار قصد دراسة المعجم الصوفي ومظاهر الحكي فيه.

خامسا. للتطبيق:

نموذج عن منطق الطير[(*)]

عذر البلبل جواب الهدهد

---

[1] المرجع السابق، ص116.

[2] محمد زايد، أدبية النص الصوفي (بين الإبلاغ النفعي والإبداع الفني)، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2011، ص315.

[(*)] النص مقتبس من كتاب في الأدب المقارن لمحمد عبد السلام كفافي، ص451-453.

ودخل البلبل الواله نشوان ثملا
وقد تخلى –بكمال عشقه– عن الوجود والعدم
لقد كان له معنى وراء كل لحن
ولقد هتف بأسرار المعاني
قال: إنني أنا خاتم أسرار العشق
أنا الذي أملأ البساتين بالأنغام
وابعث الهيام في قلوب العشاق
وإني لأنطق في كل وقت بسر جديد
وكل من رأى جيشاني تخلّى عن ثباته
وتملكه السكر وإن كان بالغ اليقظة
أما الوردة فهي التي تعلم سر البلبل
إنني هكذا مستغرق في عشق الوردة
فأنا محو مطلق أمام وجودها
وفي رأسي من عشق الوردة جنون عظيم
فما دامت وردة ذات مائة ورقة تخلب قلبي
فكيف يؤول أمري إلى أن أكون بدون ورقة واحدة؟
إن الوردة حينها تتمتع بمثل هذه الفتنة
تبتسم السعادة في وجهي من كل جانب

فقال الهدهد: يا من توقفت عند الصورة الظاهرة
لا تته أكثر من هذا بعشق الحسن
إن تعشقك لطلعة الوردة قد بلاك بالشوك
فمع أن الورد صاحب جمال وافر
فحسنه في سبعة أيام يصيبه الزوال
وعشق ما هو نهب للزوال، على هذه الصورة الواضحة
لا يخف أن أهل الكمال يكون لهم منه ملال
ومع أن ابتسام الوردة يجتذبك إليه
فإنه يقودك إلى نواح الأسى صباح مساء
فدعك من الوردة فإن الوردة في كل ربيع
تضحك منك، ولا تبسم لك ألا فلتخجل!
فلو أنك كنت صاحب قدر من الحياء
لما نظرت بعينك إلى الوردة إلاّ غاضبًا

حاول استنباط الأبعاد الصوفية، من هذا الحوار الذي دار بين البلبل والهدهد.